

# مقبرة الباشورة: الموت على طبقات كثيرة

(تصوير  
هيلم  
الموسوي)

## غفران مصطفى

يمشي الناس على الرصيف المحاذي لحائط مقبرة الباشورة إلى حياتهم العادية. يلامس صخبهم سكون الراقين خلف ذلك الحائط الذي يفصل بين نقيضين صارا مع الوقت اليقين.

هذه المقبرة، التي جايلت أبناء منطقة الباشورة وأهالي بيروت عموماً، صارت جزءاً من حياة العابرين والساكنين أيضاً. هؤلاء الذين باتوا يذخرون لموتهم، تماماً كما يذخرون لأيامهم المقبلة. هكذا يفعل صاحب الدكان الصغير في الحي. «يجمع» لموته كي يحظى بقبر يليق به. وهذا ما يفعله أيضاً حارس المقبرة، الذي يعيش الموت يومياً.

تراه جالساً عند باب المقبرة. ينفث سيجارته منتظراً الزائرين. وهو، عندما يرى أحدهم متجهاً نحوه، يترجّل عن كرسيه ليسال الآتي من له في هذا المكان. حتى إذا عرف اسم الميت الذي يقصده، سمح له بالدخول. يدخل رجل أربعيني، يلف بذراعيه جزة رخام فيها شتلة صغيرة، ويقصد قبراً بعيداً. لكن العامل هناك يمنعه من زرعها على المساحة الترابية فوق القبر إلا بإذن من إدارة المدافن.

يحكي مختار منطقة الباشورة مصباح عبدو عن هذه المدافن التي هي لأهالي بيروت عامة. وقد استحدثت مقبرتان جديدتان بعدد في منطقة الطيونة. دوار شاتيل، وهي مدافن الشهداء التي افتتحت خلال الأحداث التي وقعت في بيروت عام 1958، والمدافن التابعة لدار الفتوى ولها لجنة خاصة تتولى إدارتها، منفصلة عن جمعية المقاصد، ولكنها تعمل بالتنسيق معها. ويقول عبدو إن مدافن الباشورة «كانت تابعة للدولة العثمانية، قبل أن تتسلم

## التلة التي صارت مقبرة

يروى أهالي المنطقة أن مقبرة الباشورة كانت في السابق أشبه بتلة ترابية. بقيت على تلك الحال حتى عام 1829، عندما قام الشيخ عبد الرحمن الحوت، أحد أبرز العلماء المسلمين في بيروت، ببناء سور للمحافظة على حرمة قبور المسلمين. وفي تلك الفترة أيضاً، كان أبناء بيروت يُطلقون على الشخص الذي يقوم بتجهيز الميت وغسله وإعداده للدفن بـ«النصولي»، ولا يزال هذا الاسم يُطلق على إحدى العائلات البيروتية حتى اليوم.

شؤونها جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية العام 1960، ولا تزال حتى اليوم.

بقيت مدافن الباشورة تستقبل الأموات من أهالي بيروت حتى عام 1975، إلى أن اتخذ قراراً بإقفالها، وتحويل الدفن إلى مقبرة الشهداء في شاتيل. وكان سبب الإقفال هو استبدالها بمشروع استثماري جديد لبعض رجال الأعمال. هكذا، «توقفت عملية الدفن في مقبرة الباشورة لمدة 10 سنوات، بانتظار أن تتحلل كل الجثث التي تحتاج كل واحدة منها لسنتين تقريباً، بحسب حرارة الأرض»، يتابع عبدو. ولكن، مع اندلاع الحرب الأهلية والاشتباكات التي دارت داخل المخيمات الفلسطينية، أضطر أصحاب المشروع إلى وقف التنفيذ والعودة لـ«مزاوله» الدفن في مقبرة الباشورة بسبب قرب مقبرة الشهداء من مخيم شاتيل.

اكتسبت مقبرة الباشورة شهرة كبيرة، لأنها تعدّ «البيت» الأساس الذي يخلد إليه موتى أهالي بيروت، ولأنها تضم الكثير من العلماء والأولياء والمسؤولين من زمن الخلافة العثمانية، وعلى رأسهم قبر والي سوريا أحمد حمدي باشا الذي يقع بجانب سور المقبرة الذي بناه العثمانيون عام 1892 من أجل فصلها عن المنازل والطرقات. ويعدّ قبر الوالي من الآثار المهمة التي بقيت من العهد العثماني، ويتميز بغرفته الحجرية، التي يصعد إليها الزائرون بدرج صغير تعلوه قبة مستديرة. ومن الرؤساء اللبنانيين الذين دفنوا هناك رئيس الحكومة السابق شفيق الوزان ورئيس حزب النجادة النائب السابق عدنان الحكيم. أما أبرز العائلات البيروتية المدفونة في مقبرتي الباشورة والشهداء، فهي عبدو ومكاوي والبنا والحوت والطرابلسي والصقال وعلاء الدين والمصري.

حتى اليوم، لا تزال مقبرة الباشورة تستقبل الأموات، «ولن تتوقف عن ذلك، لأن مقبرة الشهداء أصبحت ممثلة»، يقول عبدو. أما عن المدافن الجديدة التابعة لدار الفتوى، فخصصت لأهالي بيروت الذين لا يملكون قبراً سابقاً في مقبرتي الباشورة والشهداء، «أي أنه لا يوجد فيهما أحد من الأقارب»، يتابع عبدو. أما الذين يملكون قبراً في إحدى المقبرتين فيدفنون فوق أقاربهم، بشرط أن تكون الجثث السابقة قد فنيت، وذلك إفساحاً بالمجال أمام العائلات التي لا تملك قبراً. وعن تكاليف الدفن، يوضح عبدو أن «كلفة القبر الجديد في مدافن الباشورة تصل إلى حدود الـ15 ألف دولار أميركي، بينما في المقابر الجديدة (مدافن دار الفتوى) فإن الكلفة لا تتعدى الرسوم الأساسية، أي ما يقارب الـ500 دولار».